المصـــــدر : الحياة
التـــاريخ : 05-04-2007
الصفحـات : 15
العـــدد : 16071
المسلسل : 112

"اعلان الرياض": تقويم الوضع العربي تمهيداً لتصحيحه

من قمة الرياض (رويترز)

□ يجب القول إن العناوين التي وضعتها القيادة السعودية لأعمال القمة العربية التي استضافتها نهاية شهر آذار (مارس) العام ٢٠٠٧، وتصدرت «اعلان الرياض» الذي تبنته لاحقاً، كانت استثنائية فعلاً لجهة الجوهر والمضمون كما أنها أغنت تاريخ القمم العربية لجهة التصدي الواقعي للقضايا المطروحة على الأمة.

هذه العناوين هي: «الهوية العربية» على طريق دعم مقوماتها ومرتكزاتها وترسيخ الانتماء اليها، «نشر ثقافة الاعتدال والتسامح والحوار» تأكيداً لرفض العرب كل أشكال الارهاب والتطرف والغلو، «ترسيخ التضامن العربي» من خلال تفعيل مجلس السلم والأمن العربي، «تأكيد خيار السلام العادل» باعتباره خياراً استراتيجياً للأمة، وأخيراً «الوقوف مع النفس وقفة تأمل ومراجعة» لمناقشة كل ما كان على مدى عقود وأدى الى ما أدى اليه من انهيارات واحباطات على امتداد أرض العرب من المحيط الى الخليج.

محمد مشموشي*

المصـــدر : الحياة
التـــاريخ : 05-04-2007
الصفحـات : 15
العـــدد : 16071
المسلسل : 112

■ عناويـن اسـتثنائية، للقمـة العربية التاسـعة عشـرة، وعلى رغم انها لا تزال في بدايتها على الورق، فهي في الظروف العربية المعروفة، تتوغل عميقاً في واقع عربي شهد تزييفاً متعمداً وواعيـاً للعديد من العناوين والمفاهيـم بحيث باتت بحاجـة، ان لم يكن الى اعـادة تقويم، فاقله الـى اعادة تعريف. والأمثلـة على ذلك كثيرة، يمكن ايجازها بما يأتي:

– أصبحت «الهويـة العربية»، في لبنان على سـبيل المثـال، إما هوية سـورية أولاً وأخيـراً (بمعنـى تبني مقـولات النظام في دمشق من دون غيره) أو لا تكون هوية عربية أبداً.

المشـهد اللبناني، في هذا المجال، فاقع الى حد انـه يبدأ باتهـام «الممانعين» لهذا الاختزال للهوية بأنهـم خارجون على الأمة ولا ينتهـي باتهامهـم بالخيانـة الوطنيـة والقومية. هذا المشـهد اللبناني مجرد مثال فقط، لأنه ليس غائباً عن أقطار عربية أخرى، وأن يكن بهذه النسبة أو تلك.

– كذلك فقد تحولت «ثقافة الاعتدال»، التي دعا «اعلان الرياض» الى نشرها بين العرب، الى اكثر من تهمة. باتت أحياناً مذمة وشتيمة يطلقها بعض رجال السياسـة وبعض رجال الاعلام، كما لو أنها مرادف لـ «الاستسـلام» أمـام العدو – بل الأعداء في العالم، وهم كثر

– ان في ما يتعلق بالتسـوية في المنطقة أو فـي ما يتعلق بالمخططات التي ترسـم لها. وعلى هذه «القاعدة» (وما أكثر «القواعد» في هذا العالـم) وصفت مجموعة الدول العربية المسـماة «معتدلة» بأنها «مستسلمة»، وفي المقابـل بـات التطـرف، وان فـي الخطب والاذاعـات، «ممانعـة» مظفـرة، والتقاتـل بين ابناء الشـعب الواحد «مقاومة» باسلة، وعدم التسامح الديني والمذهبي «رداً للكفر والكفار»، والغلو في الخطاب السياسي دليل لثبات على «المبادئ»!!.

– أمـا «التضامن العربي»، فأضحى الغاء كاملاً للعربي الآخر على طريق التعامل معه كـ «ورقة» للمساومة، أو ملحق وتابع، فضلاً عن التدخل الفظ في شؤونه الداخلية من مراعاة حتـى لنقاط الضعف لديه. وتحت شـعارات من نوع «وحدة المسـار والمصير»، لا بأس من التلاعب بكل شـيء في البلـد الآخر بما في ذلك وحدة الشـعب والأرض وجرهما الى شفا حروب أهلية وطائفية ومذهبية. العراق نموذج، ولبنـان نموذج آخر، أما فلسـطين فحدث ولا حرج، باعتبـار أنها اعتادت على مدى سـتين سـنة كاملـة علـى «الأوراق» و «المساومات» وبازارات البيع والشراء.

من هنا أهمية، بل اسـتثنائية، العناوين التـي تناولتهـا القمة العربية ثـم تضمنها «اعلان الرياض» والجديـة التي يفترض أن تكون قد نوقشت بها عبر ما وصفه الاعلان بـ «وقفة تأمل مع النفس ومراجعة» لما كان من فرقة وتشـرذم عربيين يتحمل مسؤوليتهما، بحسـب خادم الحرميـن الشـريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، قادة العرب وزعماؤهم أنفسـهم. وهـي هنـا السرد المنطقـي على الاستسـهال العربي المعتـاد لاتهام القوى الخارجيـة، أو «المؤامـرة» الدائمـة، مع أن الواقع يناقض ذلك... وربما على طول الخط.

ذلـك أن أحداً غيـر العراقيين أنفسـهم، قـادة ورجال ديـن وزعماء أحزاب سـابقين وحاليين، لا يتحمل وزر الدماء الغزيرة التي تسفح يومياً منذ أعوام على أرض الرافدين. أكثـر من ذلك، يجب القـول انه حتى إذا كان هناك هاجس تجـاه احتمال انفصال الأكراد شمال العراق، فالمسؤولية الكبرى تقع على عاتق القادة اياهم أكثر مما تقع على الأكراد، إذ كانـت هوية الأكـراد ولغتهـم وعاداتهم وتقاليدهم، وعلى مدى عقود طويلة، الفيصل الذي أنكـره وتنكر له حـكام العراق، فضلاً عن تنكرهم للحد الأدنى من مشـاركة الأكراد الطبيعية في سـلطة بلدهم وثروتها وادارة شؤونهم فيها.

كذلك، فأحد غير السـودانيين أنفسـهم، قادة وزعماء ورؤسـاء حكومات، لا يملك أن يبرئ نفسـه من تبعـات الحـروب العديدة التي شهدها الجنوب (وحالياً دارفور، وغداً لا نعـرف أيـن!) على رغم كل مـا قيل ويقال عـن أدوار خارجيـة، سياسـية وتبشـيرية واقتصادية، فـي هذه الحـروب وعلى مدى عقود طويلـة من تاريخ السـودان الحديث. ولا يختلف حال السـودان لهذه الناحية عنه فـي الصومال، ولا في الجزائـر طيلة أعوام سـابقة، ولا حـال أكـراد العراق عـن حال الأمازيغ في الجزائـر والمغرب، وصولاً الى أحـوال الأقليات الدينيـة والأثنية في أقطار عربية أخرى.

ليست القضية هنا قضية موقف سياسي، داخلياً كان أو خارجيـاً، يتفق عليه البعض ويختلف حوله البعض الآخر في هذه الدولة أو تلـك. انهـا قضية ثقافة سياسـية، ولدى الأنظمة الحاكمة أولاً وأخيراً، تلك التي أدت الى حال الاهتـراء البنيوي الذي يعاني منه العرب فـي مرحلتهم الحاليـة. وهي قضية تطرف وغلو لحماية الأنظمة والقائمين عليها في بعض الحـالات، ولتغييرهـا والانقلاب عليهـا في حـالات أخرى، قبـل أن تكون أي شيء آخر، أو من أجل أي شيء آخر.

ولعلـه في هذا السـياق بالـذات جاءت دعوة «اعلان الريـاض» الى اعطاء الأولوية، فـي المرحلة المقبلة، لنشـر «ثقافة الاعتدال والتسـامح والحـوار والانفتـاح» من جهة ولرفض «كل اشكال الارهاب والتطرف والغلو والتوجهـات العنصرية الاقصائية وحملات الكراهية والتشـويه» من جهة ثانية. ذلك أن الداء هنا ليس من صنف الوباء الذي تأتي به رياح تهب من الخارج، على رغم شـيوع مثل هذه الأوبئة والرياح، بل لأنه يتناقض جذرياً مـع تاريخ هذه المنطقة من العالم وأساسـاً مع الحضـارة العربية والاسـلامية التي ما قامت يوماً علـى الغلو والتطرف حتى وهي تصارع الدول المسـتعمرة التي أمعنت فيها تنكيلاً واستبداداً ونهب ثروات.

هل تقف أمـور الاهتراء العربي عند هذا الحد؟!.

لا طبعاً، فما أورد «اعلان الرياض» تحت عنـوان «ترسـيخ التضامـن العربـي» انما وضـع اصبعاً آخر على جـرح آخر. وحقيقة أن «الأزمات والنزاعـات بين الدول العربية» نادراً ما وجدت حلولاً لها بالطرق السـلمية لا فـي اطـار الجامعة العربيـة ولا في اطار «مجلس السـلم والأمن العربي» حقيقة ثابتة لا جدال فيها. الاشـتباكات التي شـهدتها كل حـدود متنـازع عليها أكثر مـن أن تعد، والخلاف عليهـا بين قطر والبحرين مثلاً لم يجد حلاً إلا من خلال محكمة العدل الدولية، كذلـك حال اللجوء الى اقفال الحدود (عقاباً) بين سـوريا ولبنان وبين سـورية والعراق وبين الجزائر والمغـرب وبين ليبيا ومصر الخ... إضافة الى ما كشـف، وما لم يكشـف للعلـن، من مؤامرات ومحـاولات اغتيال من نظام حكم فـي بلد ما ضد نظام حكم في بلد آخـر، وقد يكون غياب ليبيا عن قمة الرياض نتاج واحدة من هذه الممارسات.

سـيقال حتماً، وكما هي العادة مع القمم العربيـة، إن العبرة تبقى فـي امكان ترجمة العناوين الاستثنائية هذه ونقلها من حالتها الراهنة، مجرد كلمات على الورق، الى أفعال ووقائع حية على الارض.

ذلك سـليم وصحيح من دون شك، إلا أن الحقيقة التي لا يجوز اغفالها هي أن «اعلان الرياض» قام بتشـخيص الـداء (بل العديد من الأدواء) علـى عكس ما كانت تفعل القمم العربية من تجاهـل أو حتى تغطية لمكامن العلـل التي تنشـب أظافرهـا وتتغلغل في أنحـاء الجسـد العربـي. وإذا كان لا علاج ناجعاً ممكن من دون تشخيص جدي وسليم، فيصح القـول إن الخطوة الأولى على طريق الألف ميل بـدأت وأن علـى الجميع، حكاماً وأحزابـاً ونخبـاً ومجتمعـات أهلية، ليس انتظـار الخطوات التاليـة فقط وإنما العمل من أجلها والمساهمة فيها أيضاً.

---

* كاتب لبناني